الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
﴿ ليالي الأصفهاني في كتاب الأغاني ﴾

إسماعيل بن الهربذ

مقدمة موسيقية..

مقدمة كلامية..

أبو الفرج: إسماعيل بن الهربذ مكي مولى لآل الزبير بن العوام..وقيل: بل هو مولى بني كنانة..أدرك آخر أيام بني وغنى للوليد بن يزيد وعمر إلى آخر أيام الرشيد..

إسماعيل: يترنم ببيت من الشعر ويكرره..

وَإِنّي لَيَدعوني هَوى أُمِّ جَعفَرٍ وَجارَاتِها مِن ساعَةٍ فأُجيبُ

" ثم يصمت "..

خالد: من هو المترنم بقول الشاعر: " وَإِنّي لَيَدعوني هَوى أُمِّ جَعفَرٍ"؟

إسماعيل: وهل أغضبك ما سمعت يا سيدي؟

خالد: أبداً..على العكس..يبدو لي أنّ صاحب الصوت يتميز بحنجرة فريدة من نوعها..

إسماعيل: لقد خفتك والله على نفسي.

خالد: إذاً فهو أنت؟

إسماعيل: نعم..إذا كان هذا لا يغضبك..

خالد: ولماذا يغضبني يا غبي..نحن هنا في مكة نبحث عن الصوت الجميل كما يبحث الآخرون عن ركاز الذهب.. قل لي: من الذي علمك الغناء؟

إسماعيل: امرأة أسمعها صباح كل يوم ومساءه تغني.

خالد: غريبة..ومن هي هذه المرأة؟ فإنّه لم يسبق لي أن سمعت امرأة تغني..

إسماعيل: ذلك لأنّك قليلاً ما تلم بهذه الجهة من الدار حيث يعمل الخدم وتشتغل النساء..

خالد: حسن..فهل تغني المرأة في مثل هذا الوقت؟

إسماعيل: أنا هنا بانتظار أغنيتها المسائية ولا أخفي عليك يا سيدي خالد أنّني تعلمت منها شيئاً كثيراً إنّ في وسعي أن أغني عشرات من أصوات أشهر المغنيين كالفريض وابن سريج وطويس ممن طار ذكرهم في الآفاق.

خالد: لكنّك لم تقل لي: من هي جارتنا هذه؟

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

إسماعيل: حاولت أن أعرفها فما وفقت إلى ذلك.

خالد: أوَما سألت خادماً لها؟

إسماعيل: المدهش يا سيدي أنّ جميع من في الدار والخدم من بينهم طبعاً منغلقون على أنفسهم لكأنهم يعيشون في عالم خاص بهم..

عزف موسيقي من بعيد يبقى في خلفية الحوار.....

خالد: يبدو لي أنّ هذا الضرب قادم من الدار المجاورة.

إسماعيل: انتظر قليلاً وستسمع غناءً يسحر الألباب.

خالد: ألا يحسن بنا أن نقترب قليلاً من الدار؟

إسماعيل: المشكلة يا سيدي أنّ بين سورنا والدار فسحة واسعة من الأرض لا نستطيع الدخول إليها.

خالد: " يفكر قليلاً " ما رأيك لو نتسور سور منزلنا ونقترب فنسمع الغناء؟ فلا بد أن نجد شجرة أو مكاناً نختبيء فيه.

إسماعيل: " بعد تردد " الحقيقة يا سيدي أنني أتسور السور كل صباح ومساء وأنا آمن حتى اليوم.. لكنني خفت أن أخبرك بما أفعله..

خالد: لا بأس عليك وفي هذه المرة أرافقك في ركوب هذا الخطر..

إسماعيل: حسن..كما تشاء..

العزف الموسيقي يقترب ثم تغني امرأة....

أَلَمّا تَعلَما سَلمى أَقامَت

مُضَمّنَةً مِنَ الصَحراءِ لَحدا

لَعَمرُكَ يا وَليدُ لَقَد أَجَنّوا

بِها حَسَباً وَمَكرُمَةً وَمجداً

وَوَجهاً كانَ يَقصُرُ عَن مَداهُ

شُعاعُ الشَمسِ أَهلٌ أَن يُفَدّى

فَلَم أَرَ مَيّتاً أَبكى لَعَينٍ

وَأَكثَرَ جازِعاً وَأَجَلَّ فَقدا

وَأَجدَرَ أَن تَكونَ لَدَيهِ مَلكاً

يُريكَ جَلادَةً وَيُسِرُّ وَجداً

خالد: " يصفق " أحسنت والله وأجادت..

إسماعيل: اخفض من صوتك فإنّي أخاف أن يشعر أهل الدار بوجودنا فتكون الفضيحة..

خالد: صدقت يا إسماعيل. لكن يجب أن نفعل شيئاً لتتعلم منها يا إسماعيل.

إسماعيل: طالما فكرت في هذا الموضوع فما وجدت مدخلاً إليه.

خالد: ما رأيك لو أخترق الستار الذي بيننا وبينها؟

إسماعيل: ربما تنجح يا سيدي..فإنّ لك من وجاهتك في المدينة وعلو شأنك ما يسمح بإختراق الستار.. أما أنا فلا استطيع..

فترة صمت...طرق على البـــاب.....

بسمة الصباح: " حركة فتح الباب " نعم من الضيف؟

خالد: أنا خالد بن عبد الله المخزومي.

بسمة الصباح: " باهتمام وفرح " أأنت القرشي؟ تفضل وأدخل.

خالد: " فترة صمت " لعلك تعجبن لهذه الزيارة؟

بسمة الصباح: من الطبيعي أن أعجب لها.. لكنك هنا على الرحب والسعة؟

خالد: هل أدخل في الموضوع دون مقدمات؟

بسمة الصباح: لعل الحديث دون مقدمات أن يكون خير أسباب التواصل بين الناس.

خالد: حسن..فهل أنت صاحبة الغناء في كل صباح ومساء؟

بسمة الصباح: نعم أنا صاحبة الغناء..لكن كيف أتيح لك أن تسمعه؟

خالد: الحقيقة أنّني ما سمعت غناءك إلا مساء أمس لكن خادماً لي يتابع السماع منذ مدة طويلة.

بسمة الصباح: لا بد أنّه يتسور الجدار ويقترب من دارنا ليسمع.

خالد: هذا صحيح..وإذا كنت قد غفرت له فعلته فلأنّني أعجبت بصوته ووجدت فيه من الدفء والقوة والوضوح ما لا أجده عند كثيرين غيره.. لكن قولي لي: من أنت؟ ولماذا تحيطين نفسك بهذا السياج من الكتمان وأنت تملكين مثل هذه الحنجرة؟

بسمة الصباح: " تضحك " لعل هذا التكتم أن يكون وسيلة من وسائل الإعلان عن الذات..إنّ الناس يا سيد خالد يركضون دائماً وراء الغموض.. أما وقد إخترقت ستار الكتمان أنت فأخبرك أنّني بسمة الصباح.

خالد: ماذا تقولين؟ بسمة الصباح؟ الكوكب المضيء في المدينة المنورة؟

بسمة الصباح: نعم يا سيد خالد أنا هي بالذات.

خالد: إسمعي يا بسمة.. أما وقد إنكشف الغطاء فإنّني ألتمس منه الإهتمام بإسماعيل خادمي الذي حدثتك عنه.

بسمة الصباح: أفعل وسعي إن شاء الله.

خالد: لكنّني حريض قبل ذلك على تقديمك للناس في يوم حافل لم تعرف مكة مثيلاً له..

بسمة الصباح: وهل هذا ضروري؟

خالد: بل هو شرط لا بد منه.

بسمة الصباح: حسن..كما تشاء..

نقلـــة موسيقية.....

أبو الفرج: عن محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي، عن أبيه: أنّ إسماعيل بن الهربذ قدم على الرشيد من مكة، فدخل إليه وعنده ابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وفليح وغيرهم.. فغنّى ابن جامع ثم فليح ثم إبراهيم ثم إسحاق فما حركه أحد منهم ولا أطربه.. فاندفع ابن الهربذ يغني فعجبوا من إقدامه في تلك الحال على الرشيد.

موسيقى يختتم بها لحن آخر أغنية..

الرشيد: " فترة صمت " الآن وقد سمعنا كلاً من ابن جامع وفليح وإبراهيم واسحاق فلنجرب من لم تعرفه بغداد بعد.

إسماعيل: لعلك تقصدني يا أمير المؤمنين..

الرشيد: بلى يا ابن الهربذ.. لقد قيل لنا إنّ في صوتك سحراً من سحر هاروت وماروت..

إسماعيل: يا أمير المؤمنين أخاف أن يصيبني ما أصاب المعيدي.. تسمع بي خير من أن تعاين غنائي بنفسك.

الرشيد: " يضحك "كلا يا إسماعيل لقد حدثني عنك من يحسن وزن الأصوات وتقدير صناعة اللحون. لكن قل لي: هل صحيح أنّك تعلمت الغناء متدرجاً من مغنية حجازية تدعى بسمة الصباح؟

إسماعيل: كان ذلك في البداية..لكن مولاي خالداً لم يلبث حتى لحق بربه ثم غادرت بسمة الصباح مكة عائدة إلى موطنها دون أن أعرف سبباً لذلك.. لكن الناس كانوا يقولون لقد عادت إلى المدينة لأنّها لم تستطع مواجهة المغنيين الكبار في مكة.

الرشيد: حسن يا إسماعيل وما هو رأيك في الوليد بن يزيد؟ لقد علمت أنّك غنيت له أيضاً في أثناء توليه للخلافة..

إسماعيل: وهذا صحيح يا أمير المؤمنين كان الوليد رحمه الله من عشاق الحياة..كان يسعى إلى المتعة..ويصطنع المرح في كل موقف وكان مبسوط اليد مفتوح القلب طيب السريرة.. لكنّه كان في الوقت نفسه سيء الحظ في السياسة..

الرشيد: " فترة صمت " والآن ماذا ستغني؟

إسماعيل: صوتاً بلحن قديم وكلام جديد..

الرشيد: نسمعه أذاً ..

عزف موسيقي..إسماعيل يغني..

يا راكب العيس التي وفدت من البلد الحرام

قل للإمام ابن الإما م أخي الإمام أبي الإمام

زين البريّة إذ بدا فيهم كمصباح الظلام

جعل الإله الهربذيّ فداك من بين الأنام

الرشيد: " يقاطعه بالتصفيق والإستحسان أثناء الغناء وبعده " هل سمعت يا ابن جامع؟ وأنتم يا فليح وإبراهيم وإسحاق..هل وجدتم في هذا الصوت ما وجدت؟ الآن أدركت لماذا تميز الحجاز من دون غيره بإخراج أحسن الغزل وأجمل الغناء.." يلتفت إلى إسماعيل " لكن قل لي يا إسماعيل: لماذا غنيت هذا الصوت بلحن قديم وكلام جديد؟

إسماعيل: ذلك أنّ لهذا الصوت قصة طريفة يا أمير المؤمنين لا أنساها أبداً.

الرشيد: ألا تقصّها علينا؟

إسماعيل: أمرك يا مولاي..لقد جرت أحداث القصة وأنا بعد فتى في مقتبل العمر أعمل في خدمة سيد آخر غير خالد بن عبد الله المخزومي رحمه الله..

نقلـــــة.....

سعيد: " يرفع صوته " تعال يا إسماعيل.

إسماعيل: " فترة صمت " نعم يا سيدي..

سعيد: أما تزال منصرفاً إلى هذا العبث الذي تسميه غناء؟

إسماعيل: لكنك يا سيدي لم تحاول أن تسمعني ولو مرة واحدة..

سعيد: حسن..سأسمعك في يوم قادم..

إسماعيل: هل ناديت عليّ لتقول لي ما قلت فقط؟

سعيد: كلا..بل تخرج بهذين الدرهمين وتبتاع لنا لحماً..

إسماعيل: أفعل إن شاء الله..

فتاة تترنم بقول الشاعر وتكرره:

إنما الكأس ربيعٌ باكرٌ ... فإذا ما غاب عنّا لم نَعِشْ

إسماعيل: سعد صباحك أيتها الصغيرة؟

الفتاة: ومن قال لك إنّني صغيرة؟

إسماعيل: " يضحك " أنا آسف..لقد سحبت كلامي..أنت كبيرة وكبيرة جداً..

الفتاة: وهذا أيضاً غير صحيح فأنا لست كبيرة جداً..

إسماعيل: حسن..فأنت كبيرة بحيث تصلحين للغناء في الحب.

الفتاة: " بعد تفكير " أما هذا فنعم.." ثم ينفجر كلاهما بالضحك "

إسماعيل: هل تعلمين أنّ صوتك جميل؟

الفتاة: " في سخرية " هذا إكتشاف عظيم أيها الفتى الصغير! يبدو أنّ أمك قد أحسنت تعليمك فن الغناء وصناعة اللحن؟

إسماعيل: أما هذا فكثير..إسمحي لي أن أؤكد لك بأنّني لم أعد فتى صغيراً..فأنا كما ترين فتى كبير..

الفتاة: " تضحك " صدقت..والدليل على ذلك أن شاربيك قد برزا بصورة تلفت النظر..فالعثور عليهما يحتاج إلى عينين كعيني حزام..

إسماعيل: الشاربان أيتها الآنسة ليسا من شروط الفحولة والرجولة..

الفتاة: حسن..فهل تسمح لي بمتابعة طريقي؟

إسماعيل: على أن أساعدك في حمل الجرة المملوءة ماء..فأنا أقدر على حملها منك.

الفتاة: كما تشاء..

إسماعيل: على شرط..

الفتاة: اشترط..

إسماعيل: أن تعلّميني الصوت الذي كنت تترنمين به كاملاً غير منقوص.

الفتاة: أما هذا فلا..وحق هذا القبر لا أعلمك إلا بثمن..

إسماعيل: وما هو الثمن الذي تطلبينه؟

الفتاة: أربعة دراهم..

إسماعيل: أربعة دراهم؟ وأنّى لي بهذا المبلغ الكبير..

الفتاة: أنت حر..إن لم تدفع لم تسمع ولم تتعلم..

إسماعيل: أقسم لك أنّني لا أحمل غير هذين الدرهمين..

الفتاة: " تتردد " حسن..سأقبل في هذه المرة إكراما لك..

أبو الفرج: ويتابع إسماعيل بن الهربذ قصته للرشيد فيقول: فدفعت إليها الدرهمين وعلمتني فرجعت إلى مولاي بغير لحم فضربني ضرباً مبرحاً شغلت معه بنفسي فأنسيت الصوت..

سعيد: دع ما بين يديك من العمل.

إسماعيل: أمرك يا سيدي..

سعيد: " فترة صمت " قل لي: هل ستكون في هذه المرة حذراً فلا تضيع ما أعطيك.

إسماعيل: سأكون هذه المرة أشد حذراً إن شاء الله.

سعيد: إذا خذ هذان درهمان أخرج بهما إلى السوق وابتع لي بهما لحماً..وإياك أن تطيل الغياب..

نقلة....

الفتاة نفسها تترنم بقول الشاعر نفسه:

إنما الكأس ربيعٌ باكرٌ ... فإذا ما غاب عنّا لم نَعِشْ

إسماعيل: كأن روحينا تتخاطبان يا جميلتي..

الفتاة: لا تتجاوز حدك أيها الفتى..

إسماعيل: ألا تقولين لي: ما هو اسمك؟

الفتاة: ولماذا تريد أن ترعف إسمي؟ هل أنت قريبي؟ أم أنت زوجي؟ وبأي حق تطلب معرفة الاسم؟

إسماعيل: أنا آسف..لن أعود إلى الطلب.

الفتاة: حسن..قل لي يا هذا ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

إسماعيل: الظروف والمصادفة..

الفتاة: ألا تتابع طريقك..لقد كدت أعاقب من قبل سيدة المنزل بسبب تأخري في المرة الماضية.

إسماعيل: أنا في حاجة إليك.

الفتاة: وماذا تستطيع فتاة مسكينة متلي أن تفعل لك؟

إسماعيل: لقد أنسيت اللحن الذي علمتني في المرة الماضية.

الفتاة: وماذا أفعل لفتى غبي مثلك؟

إسماعيل: نحن شريكان في البلاء..فإذا كدت تعاقبين على تأخرك فقد عوقبت فعلاً وضربت ضرباً مبرحاً لسببين: التأخر وإضاعة الدرهمين..

الفتاة: ألم تسمع قول الله عز وجل: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ؟ أنا لم أعترض طريقك بل أنت الذي اعترضت طريقي.

إسماعيل: لكنّني لا ألومك..كل ما في الأمر أنّني أرغب في تعلم اللحن..

الفتاة: ولا هذا أيضاً..تدفع درهمين فتتعلم..

إسماعيل: لا حول ولا قوة إلا بالله..

الفتاة: أنت حر..إختر ما يحلو لك..

إسماعيل: " بعد تفكير" ليكن ما يكون..خذي هذان درهمان أعطيتهما لابتياع لحم من السوق إنّها عقوبة وتمضي..

أبو الفرج: قال إسماعيل: فلما رجعت إلى مولاي أيضاً ولا لحم معي قال: ما القصة في هذين الدرهمين؟ فصدقته القصة وأعدت عليه الصوت فقبل بين عيني وغفر لي خسارتي للدرهمين..

الرشيد: " يضحك " إنّها حكاية طريفة حقاً..وماذا صار إليه أمرك وأمر سيدك سعيد؟

إسماعيل: منذ ذلك اليوم تركت الخدمة عند الناس يا أمير المؤمنين واحترفت الغناء فطار به ذكرى في الآفاق وجاءني الرزق من كل مكان..

الرشيد: أما يزال سيدك الذي أضعت له دراهم حياً؟

إسماعيل: أعتقد أنه ما يزال بين الأحياء..

الرشيد: إذاً أقم عندنا هنا في بغداد وسأدفع إلى سيدك السابق ألف دينار بدل كل درهم أضعته له تقديراً لموقفه منك وتشجيعه لك..

إسماعيل: شكراً يا أمير المؤمنين وأطال الله عمرك..

موسيقى نهاية..